# الدين والعلم

أ. محمد السخاوي- مفكر قومي إسلامي وأمين التنظيم بحزب العمل الإسلامي المصري

1- تعريف العلم:

هو اكتشاف ما هية المخلوقات ومعرفة قوانينها ومن ثم معرفة صيرورتها (ماضيها ومستقبلها ) .

2- في الخلق :

الخلق و (المخلوقات) خلق مقنناً ، أى منضبطاً على سنن ، أى أن هذا "الانضباط " الخلقى يؤكد أن هذا "الخلق" لم يحدث صدفه ، وإنما له خالق خلق وضبط على قوانين - سنن - لا تتبدل ولا تتحول .

3- في الاستخلاف :

خلق الله الكون واستخلف الإنسان عليه ، ومن ثم سخر الله للإنسان كل شئ في الكون ، ولكى يستطيع الإنسان أن يستفيد من هذا "التسخير " عليه أن يكتشف سنن ظواهر هذا الكون ومن ثم معرفة ماهية كل ظاهرة وصيرورتها . وهذا ما اصطلح على تسميته " بالعلم " وخلق الله الإنسان ولديه القابلية " للمعرفة " و" التعلم " وتحصيل العلم ، وقد حضه الخالق وحفّزه على عدم التوقف عند نقطة معينة من التحصيل المعرفى والعلمى ، فالتحصيل المعرفي والعلمى ، والمخزون المعرفى عند الإنسان ليس له حدود ، ودائماً هناك ما هو مجهول بالنسبة له يستحق تخطى الجهل به إلى معرفة ماهيته وصيرورته ، لأنه دائما "فوق كل ذى علم عليم " يقول "مونتجمرى وات " لقد فات العلماء أن العلم بقوانينه ومنهجه يتعامل في حدود "معطيات العالم المادى " . وانه يفشل بالضرورة في الوصول إلى مبدع هذا الكون .

4- العلوم نوعان :

قسم العلماء العلوم إلى قسمين أساسيين ، وينقسم كل قسم من القسمين إلى عديد من الأقسام ، والفروع ، وكلما زاد المخزون العلمى البشرى إزداد عدد هذه الفروع واتسعت وتعمقت أفقياً ورأسياً ، القسمين من العلوم هما : العلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية ، يختص الأول بعلوم "المادة" المسخرة للإنسان ، وتختص الثانية بعلوم "الإنسان " كمفرد وككائن اجتماعى ، وكل قسم من هذه الأقسام وكل فرع من فروع كل قسم

له مساره الخاص به يتحدد حسب الظاهرة محل البحث العلمى ، وقد توصل العلماء بعد التقدم الهائل فيما حصلوه واكتشفوه من علوم أن المادة طاقة والطاقة مادة ، أى أن كل "مادة" عبارة عن "وحدة " من "المادة والروح" ، أى أن كل مادة لها "ماهية" من شيئين : عينى مرئى ومجرد غير مرئى ، الأول يشكل الجزء "الحسى " والثانى يشكل الجزء "الروحى " للمادة ، هذا الجزء الروحى هو الهوية ، إن هذا يعنى أن كل عنصر أو ظاهرة مادية لها هويتها ، بل وصل العلم إلى أبعد من ذلك في فهم المادة ؛ فكل مخلوق عبارة عن وحدة من المادة والروح ، ولذلك فلكل مخلوق هوية تميزه عن غيره من المخلوقات ، ويمكن مراقبة هذا التميز في عالم النبات والحيوان والإنسان .

5- في الإنسان :

5-1 - في التعريف :

تعلمنا في دراستنا الأولية للفلسفة وعلم النفس وعلم الاجتماع أن الإنسان يعرف بأنه حيوان ناطق ، وأنه كائن إرادى ، وأنه كائن اجتماعى ، يقول "مونتجمرى وات" أنه لا ينظر للإنسان بوصفه عقلاً فقط ، بل من حيث هو عقل ، وروح ، وشعور ، وإرادة ، وجملة من القوى غير المنظورة ، يقال عنها الحاسة السادسة ، أو الحدس ، أو الإلهام .

ويعرف الدكتور عصمت سيف الدولة الإنسان بأنه " وحدة من الذكاء والمادة ، أى المادة والروح ، فهو كائن مفكر وإرادى .

5-2- جدل الإنسان :

عرفنا أن مهمة العلم هى اكتشاف ماهية المخلوقات ومعرفة قوانينها ومن ثم معرفة صيرورتها ، وعرفنا أن الخلق كله خلق مقنناً ، أى منضبطاً على سنن ، وأن هذا الانضباط الخلقى يؤكد أن هذا الخلق لم يحدث صدفة ، وإنما له خالق خلقه وضبطه على سنن لا تتبدل ولا تتحول ، وأن هذه الكون وظواهره لم يخلق عبثاً ، وأنه لولاً هذا الانضباط "القانونى" لفسد هذا الكون وظواهره .

إن الإنسان هو أحد ظواهر هذا الكون ، وباعتباره كذلك ، فلن يكون ظاهرة مستثناه من الانضباط على سنة معينة خاصة به ، يقول البعض أن القول بانضباط الإنسان على قانون يتناقض مع القول بأن الإنسان كائن إرادى حر ، ولكن الأخذ بهذا القول يعنى أن الإنسان إن لم يكن منضبطاً على قانون نوعى خاص به فإننا لن نعرف ماهيته ولا صيرورته ، وليس من المنطقى استثناء الإنسان دون كل عناصر الخلق وظواهره من

الانضباط على قانون ، ولقد تخطى سيف الدولة هذه المشكلة بأن أكد على عدم التناقض بين انضباط الإنسان على قانون نوعى خاص به وبين حريته ، لأن قانونه الذى ينضبط عليه هو " الحرية " والسؤال كيف ؟ كيف تتحقق الحرية في قانون الإنسان ؟ يقول "سيف الدولة" إن قانون الإنسان هو " الجدل " أى الديالكتيك ،فالإنسان كما يقول سيف الدولة هو الجدلى الوحيد ، فالفكر المجرد " المثالى " أو "المطلق " غير جدلى ، والمادة أيضاً غير جدلية ، بالإضافة إلى أن المذهبين "المثالى الجدلى" و "المادى الجدلى" يحولان الإنسان إلى كائن مسير غير خير ، مفعول به وليس فاعل ، وهذا ضد خلق الإنسان حراً مريداً .

3-5- جدل الإنسان " الهوية " الشخصية :

الفكرة المجردة غير جدلية ، والمادة غير جدلية ، والجدل يحدث داخل وحدة تجمع بين الفكرة والمادة ، أو بين الفكر والممارسة ، أو بين العينى "المادة " والمجرد "الفكر" ، عبر عن ذلك كيفما شئت .

والوحدة التى تجمع بين الفكر والمادة ، أو بين الفكر والممارسة ، أو بين العينى والمجرد هى الإنسان ، فالإنسان كما سبق وأن أوضحنا على لسان الدكتور "سيف الدولة" وحده من الذكاء والمادة ، أو بين المادة والروح ، فهو - أى الإنسان - كائن مادى إرادى مفكر وحر . فالإنسان هو المخلوق الجدلى الوحيد على كوكبنا ، وإذا ما نسبناه إلى الكون كله فهو " أكثر شئ جدلاً "بنص القرآن الكريم ... ويؤكد علم النفس التكاملى على هذه التركيبة الوحدوية للإنسان ، وكل إنسان "فرد" له هوية تميزه عن غيره من الأفراد في المجتمع ، فلا تطابق في التركيبة الروحية أو النفسية بين فرد وآخر مهما تشابهت الظروف المادية لكليهما ، ويظهر ذلك جلياً في حالة "التوائم "

يوضح جدل الإنسان ديناميكية هذا التمايز الهوياتى بين الأفراد في المجتمع ، إذا أن التركيبة الوحدوية المادية الروحية للإنسان ، جعلت حاجاته مادية روحية متنوعة ومتوحدة ومتجددة بحكم تجدد الزمان وعدم توقفه ، وكلها حاجات تتطلب الإشباع بشكل دائم ومستمر ويقوم الإنسان بإشباع حاجاته - " وبتعبير آخر حل مشاكله "- من خلال توظيف ظروفه أو إمكانياته ، وهى دائما محدودة أمام حاجاته المتجددة ، ويقوم الإنسان بالتوفيق بين الإمكانيات المحدودة والحاجات غير المحدودة والمتنوعة بتحديد الحاجات ذات الأولوية في الإشباع ، بتعبير أخر المشكلات ذات الأولوية في الحل .

هذه العملية "التوفيقية " تتم عن طريق "جدل الإنسان " فالنقيضان في جدل الإنسان هما الماضى والمستقبل ، لأن خالق الخلق سبحانه وتعالى خلق هذا الكون ببعدين رئيسين : الأول : البعد الرأسى : بعد الزمان وهو بالنسبة للإنسان لا نهائى ولا يتوقف ومن ثم فالزمان كما خلق ماضى ومستقبل ، أما البعد

الثانى : فهو البعد الأفقى ، أى بعد المكان ، وفي الإنسان يتوحد البعدان ويتناقضان ، فالخالق سبحانه وتعالى خلق الإنسان متميزاً بخاصيتين : الأولى خاصية "الذاكرة " والثانية خاصية " المخيّلة" ، وتختص " الذاكرة " بتخزين واستيعاب "الماضى" وهو واقع مادى جامد غير قابل للإلغاء ، هو كل الظروف المحيطة بالإنسان مادية وروحية ، وتختص "المخيّلة" بتجميع " الاحتياجات المستقبلية بالنسبة للإنسان ، وبتعبير آخر تجميع وتحديد المشكلات المستقبلية المطلوب حلها ، ولأن الماضى - الظروف - محدود ومحدد بإمكانياته والمستقبل غير محدد ومن ثم تتعدد الاحتياجات الإنسانية المطلوب إشباعها ، لذا فإن هذا التناقص يحل وفق خطوات ثلاث : (1) إدراك المشكلة أو المشكلات ذات الأولية على الحل في ضوء الإمكانيات المتاحة - فقه الأولويات - (2) معرفة الحل اللازم لكيفية إشباع هذه الاحتياجات ، (3) القيام بالعمل اللازم لتنفيذ الحل - الإشباع - ، إذاً فالعملية الجدلية عبارة عن :

( أ ) مشكلة (مادية أو روحية ) (ب) حل . ( جـ) عمل ، ثم ( أ ) مشكلة . (ب) حل . (جـ) عمل ... وهكذا بشكل دائم ومستمر ، لذا "فالحل" الجدلى هو إضافة للظروف .. ولنتذكر أن الزمن لا يتوقف ولا نهائى بالنسبة للإنسان ، وتاريخ الإنسان ما هو إلا مجموعة من الحلول الجدلية لمشكلاته .

هذه التركيبة الوحدوية المادية الروحية للإنسان ، وبما تطرحه من مشكلات (حاجات) مادية وروحية ، وهذه العملية الجدلية بنقيضيها وخطواتها وما تطرحه من حقوق إنسانية لإشباع الحاجات (المشكلات) الإنسانية المادية والروحية المتجددة بتجدد الزمان تحدد "الأنا " الخاصة بكل إنسان ، هذه الأنا هى " الهوية " التى تميز كل إنسان فرد عن غيره من الأفراد في المجتمع ، وهذه " الأنا " أو الهوية الشخصية هى جوهر الوجود الفردى للإنسان وهى تتدخل وتصبغ عمليته " الجدلية " بصيغته الشخصية ، فالأنا هنا تسبق كل مفردات العلم والتكنولوجيا التى يستخدمها الإنسان الفرد .. الأنا قبل العمل ، والعمل مكمل لها ولا يلغيها ، والأنا نوع من أنواع المعتقد ، أو درجة من درجاته .

6- المجتمـــع :

6-1- خلق الإنسان كائناً اجتماعياً ، والإنسان لا يعيش بمفرده وإنما يعيش مع الجماعة التى ينتمى إليها ، والحديث عن الإنسان الفرد هو مقدمه افتراضية لمعرفة قانون الإنسان الذى هو كائن اجتماعى يعيش وسط جماعته الإنسانية ، هذه المقدمة ضرورية لأن معرفة قانون مفرد الظاهرة هو المقدمة العلمية لمعرفة قانون الظاهرة ذاتها ، وهذا ينقلنا من الحديث عن جدل الإنسان الفرد إلى الحديث عن " الجدل الاجتماعى " قانون الظاهرة الاجتماعية أى قانون تطور الجماعة ، أى جماعة إنسانية .

2-6- الجدل الاجتماعى والمجتمع :

إن الجدل الاجتماعى هو نفس قانون جدل الإنسان ولكن في نطاق الجماعة ، فالإنسان في المجتمع يدخل في جدل اجتماعى مع غيره في المجتمع الذى يعيش فيه من خلال المؤسسات التى يتضمنها ويحتويها هذا المجتمع ، ففي المجتمع تتحدد الإمكانيات في نطاق الموارد المحدودة للمجتمع في حين أن حاجات كل فرد في المجتمع غير محدودة ومتنوعة مادياً وروحياً ، ومن ثم تعد حاجات الناس في المجتمع بالملايين ، ويتنافس الناس جميعاً في إشباع حاجاتهم بإمكانيات مجتمعهم المحدودة .

فسنة تطور الإنسان الفرد هى " جدل الإنسان " وسنة تطور الجماعة ، أى جماعة ، هى " الجدل الاجتماعى " ، والنقيضان في الجدل الاجتماعى هما " الماضى " و "المستقبل" ماضى الجماعة بكل ما يحتويه من ظروف مادية وروحية" ، ومستقبلها بكل ما يتضمنه من طموحات مادية وروحية ، إن الوعى الجمعى للجماعة يتشكل من "ذاكرة الأمة " التى تحتوى كل ماضيها المادى والروحى ، ومن " مخيلة الأمة " التى تتضمن كل طموحاتها المادية والروحية ، وخطوات الجدل الاجتماعى " ، كما هى في جدل الإنسان ، ثلاث : الأولى المعرفة المشتركة للمشكلات ذات الأولوية في ضوء الظروف المحدودة والمحددة ، الثانية المعرفة المشتركة لحلول المشكلات ذات الأولوية في ضوء الظروف المحدودة والمحددة ، الثالثة العمل المشترك لتنفيذ حلول المشكلات التى اتفق من خلال الجدل الاجتماعى على أنها ذات أولوية في الواقع ، وكلما أشبعت الجماعة مجموعة من الحاجات ذات الأولوية أصبحت جزءً من الظروف تضاف إليها وتغنيها ، وتستجد حاجات مادية وروحية جديدة للجماعة تدخل في " عملية جدلية " مع الظروف الجديدة ، وهكذا تستمر سنة الجدل الاجتماعى في الجماعة الإنسانية يحكم لانهائية الزمان بالنسبة للإنسان ومحدودية الظروف المحيطة بالجماعة ؛ .. هكذا ... معرفة مشتركة ، حل مشترك ، عمل مشترك .. إلخ . تحدد "سنة الجدل الاجتماعى " للجماعة أربعة حقوق يشكل توفرها مدى فاعلية القانون وهى حق الوجود ، حق المعرفة ، حق التعبير ، حق العمل ، وكلها حقوق يكمل بعضها بعضاً ولا يلغى أحدها الآخر .

هذه التركيبة الوحدوية المادية والروحية للجماعة الإنسانية ، أى جماعة إنسانية وهذه التركيبة الوحدوية المادية والروحية لماضى الجماعة وظروفها من جهة (وحدة التاريخ ) ، ومستقبلها بكل طموحاتها وأمالها ( وحدة المصير ) ، ومع استمرار وديمومة العلاقة الجدلية بين ماضى الجماعة ومستقبلها بحكم استمرارية الزمان ولا نهائيته ، تتحدد "الأنا" الخاصة بكل جماعة ، سواء كانت هذه الجماعة عشيرة أم قبيلة أم أمة ، هذه "الأنا" هى "الهوية القومية " لأى جماعة من الجماعات ، سواء كانت الرابطة القومية لهذه الجماعة قائمة على "أسس عرقية " مثل العشيرة أو القبيلة ، أو قائمة على " أسس حضارية" مثل الأمة ، الشئ

المهم هنا أن هذه " الأنا " هى التى تميز كل جماعة إنسانية عن الجماعات الأخرى ، لأنها هويتها ، كل جماعة تتميز بهويتها عن الجماعات الأخرى ولا تمتاز بها عنهم ، وهذه " الأنا الهوية " هى جوهر الجماعة وجوهر وجودها والتى تجعل منها إضافة معرفية وحضارية لبقية الجماعات الإنسانية " التعارف " .

كما أن هذه " الهوية الأنا " تتدخل وتصبغ قانون تطور الجماعة " الجدل" بصيغتها الشخصية ، ويؤكد كثير من العلماء والباحثين ، بل والواقع العملى ، أن الهوية الحضارية للأمة تتدخل وتصبغ الانجازات العلمية التكنولوجية بصبغتها ، ومن ثم يمكن الحديث عن تكنولوجيات حضارية وليس تكنولوجيا حضارية واحدة ، ولذلك فإن العلم ليس بديلاً للهوية ، وإنما هو أداة من أوداتها وتصبغ انجازاته بصبغتها ، ومن ثم لا تناقض بين الهوية والعلمانية بكسر العين ، لأن العلمانية هى اكتشاف سنن الظواهر المختلفة في هذا الكون وتسخيرها لمصلحة الإنسان ، أما العَلمانية بفتح العين واللام والميم فتعنى الدنيوية أو اللا دينية أو اللا قيمية ، وهى هنا لا تعتبر بديلاً للأنا ، (الهوية ) ، سواء كانت هوية قبلية أو عشائرية أو هوية الأمة ، وهذا أمر مستحيل الحدوث ، كما بين لنا "جدل الإنسان " ، فإن لكل قوم هويتهم القومية التى تتحكم في سلوكيات الجماعة ، أى جماعة إنسانية ، وانجازاتها وأخلاقياتها .

الخلاصة : إن التاريخ سنة ، وهى سنة بشرية ، والتاريخ هو معل إنتاج الهوية التى هى قرين كل إنسان وكل جماعة إنسانية .

7- أوربا وأمريكا بين العْلمانية (بكسر العين وتسكين اللام ) والعَلْمَانية (بفتح العين واللام والميم ) .

نستطيع القول ، طبقاً لما وصل إليه العلم وقدمه من إنجازات ، أن " الأنا الشخصية " و" أنا الجماعة" ، يتدخل في تشكيلها وتكوينها عوامل وراثية وعوامل بيئية مكتسبة ، وبالتالى ، فإنه كما سبق وأن ذكرنا ، أن الأنا بمستوييها الشخصى والجمعى لا يتأثر وجودها بالعْلمانية أو العَلْمَانية ، فهى - أى الأنا أو بتعبير أخر الهوية - مقدمة على الاثنين ، فالعْلمانية ، بمعنى الأخذ بالأسباب العْلمية ليست حكراً على المجتمعات الأوروبية ، وإنما من المفروض ، أن تأخذ بها كل الأمم والشعوب لكى تحقق التقدم أو تلحق به ، أما العلمانية ، بمعنى الدنيوية أو اللا دينية فهى ظاهرة منتشرة في كل المجتمعات ، في حيز أو عدد قليل من الأفراد في كل مجتمع ، وما نعيد التأكيد عليه أن العلْمانية والعَلْمَانية ليست نفيا للهوية ، وبالنسبة للمجتمعات الأوروبية ومعها أمريكا فهى مجتمعات علمانية وليست لا دينية ، والدليل على ذلك أمرين : الأول : عقائدى وهو أن العَلْمانية الأوربية مذهب ، وهى إعمال للمذهب المسيحى أو الكنسى أعطى ما لقيصر لقصير وما لله لله ، الأمر الثانى : هو انتشار الأحزاب المسيحية الديمقراطية والأحزاب

المسيحية الاشتراكية فى كل البلدان الأوربية ، وظهور ما يسمى بالمحافظين الجُدُدْ فى أمريكا ، بل أكثر من ذلك تستطيع أن نتحدث عن ظهور ما يمكن أن نسميه " إحياء مسيحى غربى " فى مواجهة " اليقظة الإسلامية ضد هيمنة واستنزاف ونهب المجتمعات الأوروبية وأمريكا لمقدرات البلدان الإسلامية خاصة والبلدان المستضعفة عامة ، وبشكل مختصر نستطيع القول ، أن " أرومة " المسيحية - نسبة إلى روما - وغلبة الطابع المادى على الحضارة الأوربية قد صبغ الهوية الحضارية لكل مجتمع من المجتمعات الأوربية ، بصبغة الفردية والاستعلاء والعنصرية والهيمنة ، وهى صبغة عامة ، نتجت عن عزل السماء عن الأرض ، أعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله، ناهيك عن الظروف التاريخية لنشأة أمريكا على أنقاض الهنود الحمر .

الخلاصة :

إن الهوية صفة ملازمة للكائن ، وملازمة للإنسان الفرد ، وملازمة للجماعة أياً كان الطور الاجتماعى الذى تمر به ، وهوية الجماعة هى حاضنتها التاريخية ، وهذه الحاضنة تحتقن بداخلها العديد من المذاهب السياسية والعديد من الطوائف والعرقيات، لكن تبقى كلها منصهرة فى حاضنها الأم " الهوية " ، الهوية هى حاضنة العلمانية والعَلْمَانية ، فالعِلْمَانية والعَلْمَانية تصطبغا بصبغة الهوية الحاضنة لهما ، والهوية طبقاً لجدل الإنسان مسألة روحية ، وهى جوهر مسألة الانتماء عند الفرد والجماعة ، والخروج عليها مرض اجتماعى يجب معالجته .

8- في الأمة :

8-1- بينا باختصار في الصفحات السابقة ، أن الله خلق كل كائن أيا كان جنسه أو نوعه من مادة وروح ، وأن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وحده من المادة والروح .

8-2- ميز الله الإنسان عن بقية الكائنات بالإرادة ، فهو مخلوق إرادى ، وجدلى فالإنسان في محيط علمنا هو الجدلى الوحيد ، وفي علم الله المطلق هو أكثر شيء جدلاً ، وإذا كان الجدل بلغة العرب - أو الديالكتيك - بلغة الغرب - هو السنة أو القانون الذى ينظم ويفسر التطور الاجتماعى ، فإن الإنسان يكون هو المسئول عن صناعة تاريخه وليس غيره ، والتاريخ هو حضانة الهوية .

8-3- ليس في هذا عودة للوجودية ، لأن الإنسان طبقاً لقانونه " جدل الإنسان " يحدد مصيره بإرادته من خلال ظروفه التى يعيشها ، وليس قنبلة غير موقوتة لا نعرف متى تنفجر ، كما في الوجودية ، كما أن هذا

ليس عودة للمثالية ، لأن الإنسان في المثالية مسير غير مخير ، وإنما الإنسان كما هو فى جدل الإنسان مخيراً فيما يختار من أفعال ، كما أن الإنسان يقوم بعمل أولويات لطموحاته في حدود ظروفه المادية وغير المادية بفضل ما يتمتع به وتتميز به خلقته بعنصرى "الذاكرة " التى تختزن الماضى و " المخيّلة " التى تحدد له طموحاته المستقبلية ، ذلك لأن الإنسان وحده من المادة والروح . ما ينطبق على الإنسان الفرد ينطبق على المجتمع . فقط حينئذ ننتقل من حالة الإنسان الفرد إلى حالة التعدد أو المجتمع .

4-8: النقيضان في جدل الإنسان ، أو إن شئت في الجدل الاجتماعى هما الماضى (الظروف) والمستقبل ( الأهداف أو الطموحات ) ، وبما أن الزمن بالنسبة للإنسان لانهائى (أعمل لآخرتك كأنك تموت غداً وأعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا) فإن عملية الجدل الاجتماعى لا تتوقف ، وتتطور الجماعات الإنسانية وتتعدد تواريخها وتنتقل من طور اجتماعى إلى طور اجتماعى أرقى منه ، فتنتقل من الطور الأسرى إلى الطور العشائرى ومن الطور العشائرى إلى الطور القبلى ومن الطور القبلى إلى الطور الشعوبى ومن الطور الشعوبى إلى الطور القومى أو طور المجتمع الأمة ، وهناك تباين في عملية التطور الاجتماعى بين الجماعات الإنسانية فمنها من يزال يعيش المراحل القبلية أو الشعوبية ومنها من انتقل ووصل إلى مرحلة الأمة ، ومن ثم فإن كل مرحلة من هذه المراحل تعد تكويناً تاريخياً وليس تكويناً لحظياً ، ووفقاً لجدل الإنسان فإن الرابطة القومية رابطة حضارية بخلاف الرابطة العشائرية والقبلية حيث هى رابطة عرقية ، أما لمرحلة الشعوبية فهى بين بين .

يقول "الأستاذ موفق زريق" وهو من أبرز تلاميذ " عصمت سيف الدولة " التاريخ يصنع الأمم وفق سننه الموضوعية التى نسميها سنن التاريخ ، وبالتالى يشكل ويصوغ هوياتها ، ولكل أمة تاريخها الخاص أو هويتها الخاصة " تكوين حضارى خاص" تبلورت عبر تفاعل تاريخى طويل بين البشر والأرض ( إنتاج مادى ) وبين البشر وبعضهم البعض ( إنتاج ثقافى ) ومع إعادة الإنتاج لهذا النمط المادى والثقافى عبر أحقاب زمنية طويلة وتجديده ومن ثم استقراره وترسبه في قاع اللاوعى واللاشعور الجمعى لأفراد الأمة ، نستطيع القول بأنه أصبح لهؤلاء البشر شخصية حضارية متميزة أو هوية حضارية متميزة تكونت أو تشكلت على أساس من هيكلية ثابتة ومستقرة نسبياً وهم بذلك أيضاً يتميزون كأمة ذات هوية حضارية متميزة أو سمات حضارية متميزة وثابتة نسبياً...

" إن التطور الحقيقى والأصيل ليس نفياً أو قطيعة بل إضافة للأصل أو لما سبق وإغناء له وإثراء أو كما قال أحدهم " تجديد بالأصالة " ...

" من هنا فإن أى محاولة للتجديد والتطوير أو التقدم لا تنطلق من هوية الأمة وشخصيتها وحضارتها الخاصة المتميزة - هى نوع من النفى لهذه الهوية ولتلك الشخصية وستبقى "إضافة " دخيلة وغريبة وكالزبد ستذهب جفاءً.

"كما أن أى محاولة لمقاومة التجديد والتقدم تحت أية دعوى .. هى محاولة نتيجتها التقهقر والتراجع والموت المحقق"(موفق زريق - كتاب نهضة أم تغريب ص12 ، 13)

9- في الأمة العربية :

إن الجدل الاجتماعى هو سنة تاريخ الجماعات والأمم الإنسانية ، وكل أمة تكوين حضارى خاص تبلور عبر تفاعل تاريخى طويل بين البشر والأرض (إنتاج مادى ) وبين البشر وبعضهم البعض (إنتاج ثقافي ) ... فما هى الظروف التى شكلت تاريخ الأمة العربية ؟ الإجابة مهمة حتى نعرف هوية الأمة العربية ، التى هى بدورها تكون بالنسبة لنا القاعدة التى تنطلق فيها لتحقيق مشروعنا القومى في دولة الوحدة القومية الشاملة لكل الوطن والشعب العربى ، وباختصار غير مخل ومناسب للمهمة التى نحن بصددها ، فإن تاريخ الأمة العربية مرّ بثلاث محطات أو مفاصل ، الأولى مرحلة ما قبل الإسلام (المرحلة القبلية والشعبوية ) ، والمرحلة الثانية مرحلة ما بعد الدعوة الإسلامية ونشر الرسالة ( مرحلة التكوين القومى واكتمال هذا التكوين ) ، والمرحلة الثالثة هى المرحلة الحديثة والمعاصرة (مرحلة الغزوة الأوروبية الصهيونية وسقوط دولة الخلافة ) ، وما يعننا بشأن هذه الورقة هما المرحلتين الأولى والثانية .

بالنسبة للمرحلة الأولى ، مرحلة ما قبل الإسلام ، فإنه من حيث درجة التطور الاجتماعى كانت هذه المنطقة تعيش طورين اجتماعيين متزامنين ، شعوبا وقبائل ، كانت القبائل متواجدة في وسط الجزيرة العربية ومناطق أخرى في صحراء أفريقيا العربية ، وكان الشعبيون أو الشعوب مستقرة في جنوب الجزيرة العربية ، وفي شمالها الشرقى (بلاد الرافدين ) ، وفي شمالها الغربى ( الشام ) وفي مصر والمناطق الشمالية من شمال أفريقيا العربية ، ولقد كانت المنطقة العربية قبل الإسلام وبالذات الجزيرة العربية والشام ومصر وبلاد الرافدين مهد رسالتى موسى وعيسى عليهما السلام ومسرى كل الأنبياء والرسل عليهم جميعاً السلام ، بداية من أبو الأنبياء إبراهيم وانتهاء بعيسى ابن مريم ، وذلك فقد عاشت شعوب وقبائل المنطقة درجة عالية من التفاعل الثقافي والتجارى ، والدينى ، كما عاشت فترات من الصراع فيما بينهم ، فالقبائل تتقاتل لأسباب رعوية أو اجتماعية ، كما إن هذه القبائل كانت تشن غارات على الشعوب المستقرة ، والشعوب بدورها تقوم

بالدفاع عن نفسها وقد ترتب على ذلك كله توجه عام فيما بينهم جميعا نحو التوحد اللغوى ، وقد تكلم عن هذه الظاهرة اللغوية العديد من العلماء والباحثين ، فقد اشتركت هذه القبائل والشعوب فيما بين 3000 ، 4000 مفردة لغوية ، وعلى الرغم من كل هذا التفاعل الدينى والثقافي والتجارى والصراع الذى احتوى كل هذه الجماعات إلا أنها لم تستطع أن تتخطى الطورين الاجتماعيين المتزامنين ، المرحلة القبلية والمرحلة الشعبوبية (الشعوبية ) بسبب السيطرة الفارسية والبيزنطية والرومانية عليهم أحقابا تاريخية طويلة ، هذه السيطرة حبستهم جميعاً في اسر القبلية والشعوبية ولم يستطيعوا الانتقال إلى مرحلة المجتمع الأمة (المجتمع القومى ).

باختصار علينا أن نوجز العناصر التى تحكمت في هذه المرحلة في أربعة : الأول دينى والثانى ثقافي (اللغة) ، والثالث اقتصادى ، والرابع العدو أو الأعداء الخارجيين (الفرس والروم ) .

بالنسبة للمرحلة الثانية ، مرحلة ما بعد الإسلام ، فإننا نقسمها إلى مرحلتين فرعيتن الأولى تتمثل في إعداد وتأسيس التنظيم البشرى الذى سيكون بمثابة نواة الأمة ، أما الثانية فتتمثل في الأمة النواة أو دولة المدنية وإكمال بناء الأمة العربية ، بالنسبة لتأسيس التنظيم البشرى ، يقول موفق زريق " في قلب هذا الواقع القبلى المغرق في تقاليده الوثنية الموروثة وصراعاته وحروبه الداخلية المتواصلة ، ظهرت الدعوة الإسلامية ونزل الوحى على الرسول الكريم y في مكة المكرمة ، وعلى مدى السنوات الثلاث عشر التى يسميها كتاب السيرة ( المرحلة المكية )، وعبر الصراع المميت مع المواريث الوثنية والقبلية المتحجرة والقوى المترفة والمستفيدة من استمرارها ، وبالصبر المتواصل والعنيد على الاضطهاد والأذى والحصار والتهديد والترغيب كان الانجاز الرئيسى لهذه المرحلة ... بناء الطلائع العقائدية العربية المسلمة ... والتى كانت بمثابة النواة الأولى والضرورية للانتقال إلى بناء المجتمع الجديد والأمة الجديدة عملاً بقاعدة " تغير النفس وإعادة تشكيلها هو الشرط اللازم لتغيير المجتمع ( لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ) ، وبالفعل فقد استطاع الإسلام ورسوله أن يجرى تغييراً هائلاً ، فقد انتقل بالإنسان العربى من عبادة الإلهة الوثنية القبلية المتعددة ... إلى عبادة إله الكون والإنسانية جمعاء .. وحرره من شرنقة القبلية وانتمائها الضيق إلى رحاب العقيدة الإسلامية الإنسانية الشاملة ومثلها العليا التى تجعل انتماؤه لقضية الإنسان المظلوم في كل قبيل وكل شعب ولقضية المستضعفين في الأرض ( وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ) ... انتقل به من تعصبه القبلى إلى تعصبه للمبدأ في شموله وللعقيدة في إنسانيتها ... ولله فى عدله الشامل ... إنه الإنسان الكونى الجديد ... إن هذا الانتقال والمنعطف التاريخى الذى يعد فعلاً ثورة فكرية واجتماعية وحضارية لا يعنى ولا يمثل انخلاعاً أو انسلاخاً عن أى انتماء سابق أو أى معطى حضارى واجتماعى

ايجابى سابق على مجيئى الدعوة بل هو تجاوز وإضافة أكثر شمولاً وأكثر عمقاً .. ووضع للجزء فى إطار الكل .. الكل : ( العقيدة ) الذى يحدد الجزء ويكمله ويرتقى به ولا يلغيه !! .

هذا هو المناخ الذى ارسى فيه الرسول y قواعد بناء التنظيم الثورى الإسلامى من الصحابة المهاجرين والأنصار (رضوان الله عليهم جمعياً ) ، هؤلاء الصحابة الذين رضوا الإسلام دينا ومحمداً رسولاً وقائداً ، وحملوا مع الرسول y الدعوة ، فرضى الله عنهم وغيروا وجه العالم .

أما المرحلة الفرعية الثانية ، مرحلة الأمة النواة واكتمال بناء الأمة العربية ، بدأت هذه المرحلة بهجرة الرسول y إلى المدينة ، ومؤاخاته بين المهاجرين والأنصار ، وقد ارتضت القبائل مسلمين وغير مسلمين ومنهم اليهود بتأسيس دولة المدينة وأن يكون محمداً y رئيساً لها على الرغم من أنه من غير قبائلها ، وكان هذا أول إجراء ديمقراطى في التاريخ ، وقامت الدولة على قاعدة التسامح والتعدد الدينى ، وهذا يعتبر انعطافة تاريخية سياسية واجتماعية ، حيث كانت حتى تلك الفترة - كل المجتمعات والدول تقوم على قاعدة (الناس على دين ملوكهم ) ولا يسمح إطلاقا بالحرية الدينية أو حرية الدعوة .. هذه الأسس تضمنتها الصحيفة دستور دولة المدينة .

يقول موفق زريق " فنصت الصحيفة أن للمسلمين (وهم من قبائل متعددة ) معاملاتهم .. ولليهود معاملاتهم .. وللطرفين (كما نصت ) قواعد وأسس حياة مشتركة فلا اعتداء ولا إكراه ولا ظلم .. ولأول مرة أيضاً يقوم مجتمع وتقوم دولة على قاعدة الشورى (الديمقراطية ) والاختيار الشعبى للحكام (القبول والرضا ) .. فالسلطة كانت إما بالوراثة أو بالقهر والشوكة والغزو .. ثم لأول مرة في المدينة .. وفي المنطقة تم الانتقال من مفهوم الدفاع عن القبيلة إلى مفهوم الدفاع المشترك عن الأرض المشتركة - للمجموع القبائل - والمجتمع المشترك ، أى مفهوم دفاع الكل (مجموع القبائل ) عن حق الجزء (لأى قبيلة ) ولا ننسى طبعاً تلك التجربة الفذة في المؤاخاة التى قام بها الرسول y بين المهاجرين والأنصار والتى تقوم على المشاركة في المال والأرض وأسباب الحياة وحفظها .

يستمر زريق .." وبذلك فإن مجتمع المدينة (مجتمع الصحيفة ) كان بحق نواة الأمة العربية الإسلامية الجديدة ، وبمنزلة المدخل والافتتاح التاريخى للانتقال بقبائل المدينة وقبائل شبه الجزيرة فيما بعد من طورها القبلى إلى طور الشعب الواحد المستقر على أرض واحدة وسلطة واحدة ودستور واحد ومرجعية واحدة : الإسلام " وبالتالى كان قطعاً وتجاوزاً للأسس والمفاهيم القبلية والعرقية الموروثة لصالح أسس

ومفاهيم جديدة أكثر نمواً وتطوراً وشمولاً ، وبهذا المعنى أيضاً شكل الإسلام أداة تطور جديدة اجتماعى وتاريخى يمثل ما هو رسالة هداية دينية .

" ثم إن هذه الأمة النواة لم تكن إلا القاعدة للانطلاق في الدعوة والفتح على صعيد جزيرة العرب كلها وعلى صعيد البشرية جمعاء لكى يؤدى الإسلام رسالته الدينية والتاريخية معا ...

" بعد فتح مكة 630 م وتوحد الجزيرة العربية تحت راية الإسلام ودولته في المدينة . انطلقت قوافل المجاهدين من مركزها في المدينة ، تفتح وتدعوا حتى وصلت الهند والصين شرقاً وبلاد الأندلس غرباً في فترة زمنية قياسية لا تزيد على خمسين عاماً . ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الفتح لم يكن هدفه فرض الإسلام ديناً على أهالى البلاد المفتوحة فذلك يناقض جوهر الإسلام حيث (لا إكراه في الدين ) .. وإنما كان الهدف الرئيسى من الفتح إزالة القيود والعقبات التى تحول دون حرية الدعوة وحرية العقيدة ومنع الفتنة (فتنة الناس عن دينهم ) حيث المفهوم السائد كما ذكرنا في ذلك الوقت من أن الناس على دين ملوكهم .. ونحن نعتقد أن الإسلام أول من مارس ورسخ هذا المبدأ في التاريخ البشرى ..مبدأ الحرية الدينية .

" وعلى أية حال فالفتح عندما وصل إلى نهايته العظمى كان قد دخل في ظل الإسلام ودولته مجتمعات متعددة ومتباينة في درجة تطورها الاجتماعى ، منها - كما عرفنا - ما كان في الطور القبلى ... ومنها ما دخل الطور الشعبوى .. وبعضها تجاوز الطور الشعبوى منذ زمن وصار أمة مكتملة التكوين (الطور القومى ) ، وبالتالى فإن تأثير الدين والتاريخ الإسلامى عليها من زاوية التطور الاجتماعى كان مختلفاً ومتبايناً بالضرورة .."

وللتوضيح نذكر في ذلك ثلاث أمثلة : الأول فارس ، والثانى تركيا ، والثالث العرب

بالنسبة لفارس ، فقد دخلها الإسلام بعد أن تشكلت واكتملت أمة بشعبها وأرضها وحضارتها ، ومن ثم لم يكن الإسلام إلا عنصراً مضافاً وإن كان مهماً لحضارتها القومية .

أما بالنسبة للقبائل التركية (العثمانية ) التى اعتنقت الإسلام قبل مجيئهم إلى تركيا من الصين ووسط وشرق أسيا ، وعلى الرغم من قيام الأمير عثمان بوضع اللبنات الأولى لتأسيس الإمارة العثمانية منذ 651 هـ = 1253م تقريباً ، وعلى الرغم من أن الخلافة العثمانية استمرت ما يقرب من ستة قرون ، وعلى الرغم من الدور العظيم الذى قامت به الخلافة العثمانية في الحفاظ على الإسلام ووحدة الأمة الإسلامية في مواجهة أطماع الدول الأوروبية ، وعلى الرغم من النهضة العلمية والأدبية والعسكرية والتنظيمية التى

عاشتها الدولة العثمانية قبل أن تضعف وتتفكك فإن الإسلام لم يعرّب العثمانيين مثلما عرّب العرب لأسباب رئيسية : الأول : أن دولة الخلافة العثمانية جاءت على أنقاض الخلافة العباسية التى انتابها الضعف والتفكك بعد أن تراجع الدور العربى في الدولة ، الثانى : أن العلاقات التاريخية والجغرافية والثقافية بين العرب والقبائل والعشائر العثمانية التى دخلت الإسلام وأسست الخلافة العثمانية مغايرة تماماً للعلاقات التى كانت قائمة بين القبائل والشعوب التى كانت موجودة قبل الإسلام فيما يسمى الآن بالمنطقة العربية ، الثالث : انحياز الخلفاء العثمانيون في القرنين الأخيرين من حياة الخلافة إلى النمط الغربى للحياة ، وهذا شكل مانعاً لاندماج العرب والأتراك داخل الخلافة العثمانية . الرابع : على الرغم من اهتمام الخلفاء بالآداب والفنون والعقيدة والفقه إلا أن اللغة العربية توارت للخلف وراء اللغة التركية لعاملين : الأول : تأثر الآداب والفنون التركية بالآداب والفنون الفارسية ، الثانى : أن أجهزة دولة الخلافة جعلت اللغة التركية هى اللغة الرسمية وسمحت بتداول غير رسمى للغة العربية . الخامس : استمرار تراجع الدور العربى داخل الدولة ، وتجسد في أن رجال الإدارة على المستوى المركزى والولايات كانوا غير عرب (عملية التتريك ) كل هذه العوامل مجتمعة أسفرت إلى عدم تعريب القبائل العثمانية وتطورت إلى مجتمع قومى له أنماطه وسماته (الأمة التركية ) .

أما بالنسبة للمنطقة العربية فقد دخلت بقبائلها وشعوبها الطور القومى وهى في حضن الإسلام تماماً ، فقد ألّف الإسلام بين هذه القبائل والشعوب وانصهرت جميعها في بوتقة الإسلام - كما أوضحنا - كما أن الدولة العربية الإسلامية هزمت الفرس والروم ومن ثم حررّت هذه القبائل والشعوب من السيطرة الفارسية والرومانية وانطلقت في إطار الإسلام نحو طورها القومى على القواعد الإنسانية التى أرساها الإسلام وأبرز هذه القواعد هى الحرية والعدل والمساواة والحرية الدينية وألاّ يسخر الناس من بعضهم البعض وألا يأكل الناس أموالهم بينهم بالباطل ... هكذا أحاط الإسلام والتاريخ الإسلامى بالتكوين القومى العربى خلال أحقاب تاريخية طويلة هزمت فيها الدولة الإسلامية الفرس والرومان والصليبيين والتتار ،تكونت الأمة العربية خلال هذا التفاعل التاريخى الإسلامى .. وأصبح العرب من المحيط إلى الخليج من جبال طوروس في الشمال حتى المحيط الهندى في الجنوب أمة واحدة لها هوية واحدة هى الهوية الإسلامية التى تصبغ حضارتها وأصبحت اللغة العربية هى القاعدة التحتية لهذه الحضارة ، ومن المهم أن نرصد هنا مجموعة من الحقائق التاريخية :

الأولى : إن هذه المنطقة المسماة الآن بالمنطقة العربية هى منذ فجر التاريخ نقطة تقارب دينى ولغوى وثقافي ساعد بعد الفتح الإسلامى على التطور نحو المجتمع القومى ، ودعم الهوية الدينية والإسلامية للأمة

العربية .

الثانية : إن التطور العربى نحو المجتمع الأمة ، رابطته حضارية عربية إسلامية وليست عرقية ، ولكن هذا التطور وهذه الرابطة لم تلغى الأطوار الأسرية والعشائرية والقبلية السابقة عليه ولم يلغى روابطها العرقية ، ولكنه احتواها واحتضنها ، وهذا يفسر لنا صعود الولاءات تحت القومية - أحياناً - على حساب الولاء القومى ، ونضرب لذلك مثلين دون الدخول في الشرح اللازم لهما ، المثل الأول المعروف تاريخياً بالفتنة الكبرى ، والثانى الهجمة الغربية الصهيونية الشرسة على أمتنا والمعروفة بهجمة التفكيك ، أى تفكيك كل دولة عربية إلى أربع أو ست دويلات عرقية أو طائفية ، المثل الأول كان في بداية الدخول في مشوار التشكل القومى العربى فكانت الولاءات تحت القومية مازالت أعلى شعورياً على حساب الولاء القومى ، والمثل الثانى ظهر الآن بعد أن وصلت التجزئة العربية بواقع الأمة إلى نقطة النهاية من الضعف ، وازدادت سطوة الهيمنة الغربية الصهيونية المباشرة وغير المباشرة ، حتى تستطيع القول أننا أمة محتلة تعيش مرحلة التحرر القومى ، هذا الضعف صعّد - مرة أخرى - الولاءات تحت القومية على حساب الولاء القومى ، إن هذا إنذار خطر للجماهير العربية وطلائعها أصحاب المشروع القومى الإسلامى .

الثالثة : إن مواجهة التفتيت - إحلال الولاءات تحت القومية محل الولاء القومى -يكون بإبراز الولاء القومى والراية القومية والشعارات القومية والحركة القومية في مواجهة النزعة القبلية والشعوبية المرضية ، أى مواجهة النقيض بنقيضه ، وهذه هى المهمة الراهنة والأهم لكل من هو قومى وإسلامى .. وباختصار أن الحل في التذكير وإبراز الهوية العربية الإسلامية في مواجهة النزعات المرضية والقبلية والشعوبية ، الإسلام هنا هو حامى الأمة في مواجهة التفكيك والعودة إلى تشكيلات ما قبل الطور القومى أو ما قبل الإسلام

الرابعة : إن الولاء القومى أو الرابطة القومية كما تستوعب وتحتضن الولاءات والروابط السابقة عليها ، فإنه يحتضن كل التيارات والمذاهب السياسية ، لأنه كما سبق أن قلنا - لنتذكر ذلك - أن الهوية هى جوهر الكائن والجماعة البشرية ، وهى لصيقة به وبها ، لا يستطيع أن ينفك منها ولا تستطيع أن تنفك عنه ، ومن ثم فإن الهوية الإسلامية لصيقة بالأمة العربية لا تستطيع أن تنفك منها ولا تستطيع الأمة أن تنفصل عنها ، والنتيجة المترتبة على ذلك أن كل التيارات والمذاهب السياسية هى أطياف وألوان داخل الهوية إذا تجاهلتها فشلت وإذا أدركت حتمية وجودها تنجح وتشكل إثراء للحياة والحراك السياسى في الأمة الواحدة، فلا يوجد تيار سياسى بديل للهوية القومية .

الخلاصة والنتيجة المترتبة على ما سبق أن الأمة العربية صناعة إسلامية صرفة ، وأن الإسلام هو طاقة الأمة وجوهرها وروحها ، الإسلام هو هويتها ، ولأن الهوية مكونه من مكونين (مادة وروح ) ، فإننا لا نستطيع التحدث عن المشروع القومى العربى المستقبلى ألا في إطار الإسلام تحت رايته ، ونؤكد أن هذا يشكل ضمانة للحرية والتقدم لكل مكونات المجتمع القومى العربى .

وللحديث بقية ...